القسم في شعر بشار بن برد

صالح علي سليم الشتيوي*

يكشف هذا البحث عن: "القسم في شعر بشار بن برد"؛ فقد برزت هذه الظاهرة في شعره بجلاء؛ إذ كان يقسم بلفظ الجلالة ورب محمد وعهد الله ورب منى... والحجر الأسود ومقام إبراهيم الخليل والحج... وغير ذلك، وقد كان يلجأ إلى استخدام ألفاظ وصيغ معينة في القسم، من مثل: "آليت" و "قعيدك" و "لعمري" و"لعمر أبي"، فضلاً عن الصيغ العامية، من مثل: "بحياتي" و"بعيشك".

ولعله أكثر من القسم؛ لأنه كان معروفاً بتقلبه -في معتقده وسلوكه- ولذا، لم يثق الناس بكلامه؛ فعمد إلى هذا الأسلوب، ليؤكد صدقه والتزامه.

Abstract

This study is concerned with "Oaths in the poetry of Bashar Ibn Burd", a phenomena that delay manifests itself in his poetry. He swears "by God, by the Lord of Mohammad", "By God's Covenant" "By the Lord of Mina" (The pilgrimage site); "the black stone" (of the Ca'aba) by the lf of Ibrahim, "by the pilgrimage, etc... He resorted to the usage of specific expressions in his Oaths like "I swear to...", "The humble sitter at your door"; "by my life", 'by my father's life". Aside from vernacular versions of "by my life", "by your life".

He is profuse in his usage of Oaths, for he was known to be fickle and inconstant in his beliefs and behavior, and so people had little confidence in what he said. Thus he resorted to this style, heavy with Oaths, to assent the veracity of his declamations.

* كلية العلوم والآداب، قسم اللغة العربية، الجامعة الهاشمية، المملكة الأردنية الهاشمية.

تاريخ استلام البحث: 2004/1/19. تاريخ قبول البحث: 2004/7/4.

مقدمة:

القسم من الظواهر الشائعة في الشعر العربي؛ فقد أقسم الجاهليون بالله وبرب الكعبة والأصنام: كاللاّت والعزّى وبشهر الحج[1] وبالإبل[2]، وأقسموا بالنار والرماد، قال ابن منظور: "وكان العرب إذا تحالفوا يقسمون على العهد بالحلف وعدم النقض به، وكانت عادتهم أن يحضروا في جفنةٍ طيباً أو دماً أو رماداً فيدخلون فيه أيديهم عند التحالف ليتم عقدهم عليه باشتراكهم في شيء واحد، ويسمون القسم عندئذ "اليمين الغموس"[3].

وربما يفسر قسمهم وتحالفهم على الرماد بكاء الشعراء على الأثافي السود التي تركها القوم الراحلون؛ لأن فيها قداسة الجاهلي[4]. كما أقسموا بالملح أيضاً[5]، والقسم دليل أكيد على قدسية المقسم به وحرمته وشرفه[6]، إلى جانب أنه يمثل التجاء الإنسان إلى مصادر القوة ليحتمي بها، ويؤكد صلته بعالمها وانتماءه إليها[7]، كما أن الحلف يكاد يكون أعلى درجات التعلق الديني[8].

وقد ظلت ظاهرة القسم منتشرة في الشعر العربي، وهذا ما نلاحظه في شعر بشار بن برد؛ فقد تبدت هذه الظاهرة في شعره بجلاء، ومن المعروف أن بشاراً كان أعمى، وقد ترك هذا العمى أثراً عميقاً في نفسه، فجعله متبرماً بالناس، ساخطاً عليهم، بالإضافة إلى أنه نشأ في أسرة فقيرة، فقد كان أبوه طياناً، كما عمل أخواه بشر وبشير قصابين يبيعان اللحم[9]، ولا ريب في أن هذا الفقر قد أثر في شخصيته، إذ ولد فيه "ميلاً قوياً إلى العدوان"[10]، إلى جانب أنه كان كثير التلون في ولائه[11]، ومن هنا، فلا غرو أن يلجأ إلى الإكثار من القسم في شعره، لإحساسه أن الناس لم يصدقوه و لم يثقوا بكلامه.

ولعل أول ما تبدّى من ذلك هو القسم بالله سبحانه وتعالى، كقوله يتغزل بفتاة اسمها "أسماء"[12].

واللهِ أنساكِ يا أسماءُ ما طرفتْ عيني وما قرقر القمريُّ إطْرابا

لقد جاء القسم في آخر بيت من القصيدة، وبالتالي، فهو آخر ما يستقر في وجدان صاحبته، ومن هنا، لجأ إليه الشاعر؛ ليؤكد لها- ويجمل موقفه- بأنه لن ينساها.

ويقسم بشار بالله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن محبوبته "عبدة"، فيقول[13]:

فواللهِ ما أدري: أتجحدُ حُبنا عُبيدةُ، أم تجزي به فتثيبُ؟

ولا ريب في أن القسم بالله جاء نتيجة الاعتقاد القوي في مقدرته سبحانه وتعالى ومشيئته؛ مما جعل الشاعر يقسم به.

وإذا ما تأملنا البيت السابق، فإننا نلحظ أن الشاعر استخدم ضمير الجماعة: "حبنا" -حين تحدث عن نفسه- في حين جاء باسم المحبوبة مصغّراً: "عُبيدة" وفيه تحبب، كما قدم المفعول به: "حبّنا" وأخر الفاعل: "عُبيدة"؛ ليبين شدة تعلقه بها، وانشداده إليها.

ويتغزّل الشاعر بعبدة، فيقسم بالله سبحانه، قائلاً[14]:

لقد أنكرتُ يا عبدَ ... جفاءً منك في الكُتبِ
أعن ذنبٍ ولا واللهِ ... ما أحدثتُ مِنَ ذنبِ
ولا واللهِ ما في الـ ... ـشر قٍ من أُنثى ولا الغَرْبِ
سواكِ اليومَ أهواها ... على جدٍّ ولا لِعْبِ

ويستوقفنا تكرار القسم بلفظ الجلالة، مما يساعد المتلقي على الدخول إلى عالم النص، لأنه هو الأقوى والأقدر على كشف البعد النفسي للشاعر، إذ يبين عن اهتمام الشاعر بصاحبته.

ويمدح الشاعرُ الخليفة المهدي، فيتبرّأ مما نسبه إليه حسّاده، فيقول[15]:

فواللهِ ما أدري: أأجلسُ قانعاً ... إلى المِصرِ أم ألقي الإمامَ فأفلُجُ

فالشاعر يتردد بين الركون في بلده، وبين النهوض للقاء الخليفة، ولذا، جاء القسم بالله، ليعبر عن حالته النفسية الحائرة.

والملاحظ أن البيت السابق يمتلئ بهمزات القطع التي تمثل الصوت الخائف، وذلك حين يستذكر الشاعر موقفه إزاء الخليفة "الإمام" وبخاصةٍ أن لفظة "الإمام" توحي بالوظيفة الدينية للخليفة، فهو إمام الأمة، وهو واسطة بين الأرض والسماء حسب نظرية التفويض الإلهي التي طرحها أبو جعفر المنصور أساساً لحكم العباسيين، حين قال: "إنما أنا سلطان الله في أرضه"[16]، وتابعه الخلفاء العباسيون، فجاء عُبيدة منسجماً مع جو النص.

ويكرِّر بشار القَسَم بلفظ الجلالة، حين يقول[17]:

أتوبُ إليكَ من السـ ... ـيآ تِ وأستغفرُ اللهَ من فعلتي
تناولتُ مالم أرْدْ نيلَه ... على جهلِ أمري وفي سَكْرتي
ووالله ما جئتُه ... لعمدٍ وما كان من همّتي

إنّ تكرار القَسَم بلفظ الجلالة يثير القارئ أو السامع، وقد جاء ملائماً للسياق الذي يمتلئ بمعاني التوبة والاستغفار والاعتذار، ولا غرو في هذا؛ "فعلم الأسلوب يقرر أن نمط القول يتأثر بالموقف"[18].

ويأتي بشار بصيغة "تالله" في القَسَم، حين يقول[19]:

قالوا: العَمى مَنظرٌ قبيحٌ قُلنا بفقْدي لكُمْ يهونُ
تاللهِ مافي البلادِ شيءٌ تأسى على فقدِه العيونُ

يصطنع الشاعر، هنا، موقفاً حوارياً بين الأنا/ الآخر، فالآخر يذمّ العمى- عاهة بشار الدائمة- فجاء القَسَم في البيت الثاني رداً قاطعاً. وأعتقد أن بشاراً اصطنع هذه المجادلة اصطناعاً؛ انطلاقاً من إحساسه بعاهته التي أورثته الآلام والحسرات- حتى وإن لم يكن يجاهر بها- والدليل على ذلك أنه يعزو الأسى إلى العيون، والمعروف أن الإنسان يعزو الأسى إلى القلب.

ويخاطب بشار صاحبته "عبدة"، فيلجأ إلى الاستحلاف بالله، فيقول[20]:

يا عبدَ بالله ارحمي عَبدَكِ وعلّلِيهِ بمُنى وعْدِكِ
يُصبحُ مكروباً ويُمسي بهِ وليس يدري مالَهُ عِنْدَكِ
ماذا تقولينَ لربٍّ العُلا إذا تخلّيْتِ بهِ وَحْدَكِ

وواضح أن الشاعرُ يجانس بين اسم المحبوبة: "عبدة" ولفظة "عبدك"، ولعله يريد أن يركز على معنى العبودية لله، آية ذلك أن البيت الأخير يتضمّن اعترافاً صريحاً من الشاعر بالمناجاة بين الله سبحانه وتعالى وعبده يوم القيامة حين يسأله عن ذنوبه سرّاً.

وقد استغلّ الشاعر أسلوب النداء في البيت الأول، ليخدم معانيه وأغراضه، إذ نجد في هذا الحرف "يا" من الألفة والمحبة ما يوحّد بين المُنادي والمنادى عليه، مما يعني أن المنادي بحاجة إلى المنادى عليه[21].

ولم يكتفِ بشار بالقَسَم بلفظ الجلالة، بل يضيف إليه، أحياناً، "رب محمد"، ومن ذلك قوله يتغزّل بفتاةٍ اسمها "بانة"[22]:

واللهِ ربِّ محمدٍ إنّي ببانةَ مُعجبُ
ولقد أتاني أنّها باتتْ عليَّ تلهّبُ

ويلفت النظر القَسم، هنا، فالشاعر يقرّ بنبوة محمد -عليه السلام- على الرغم من أن بشاراً كان زنديقاً[23]- ولعل هذا القسم جاء بسبب موقف حبيبته الغاضب والذي كشف عنه الشاعر في البيت الثاني.

ويلوح لي أن بشاراً لجأ إلى هذا القَسَم، أيضاً، لأنه كان متقلّباً في عشقه، ومعتقده، ومن هنا، كان يستشعر أن كلامه ليس موثوقاً به، فعمد إلى زيادة القسم والتوكيد.

ونشهد هذا الضرب من القسم، في شعره، حين يخاطب محبوبته، فيقول[24]:

واللهِ ربِّ محمّـــــدٍ ما إنْ غدرتُ ولا نويتُـــهْ

فهو يُقسم أنه لم يغدر بمحبوبته و لم ينو أن يفعل ذلك.

وإذا ما عرفنا أن هذه القصيدة -التي أخذنا منها البيت السابق- قد نظمها بشار بعد أن نهاه الخليفة المهدي عن التشبيب، فإننا ندرك أن القَسَم "المؤكد"، هنا، جاء ليمثل إصرار الشاعر على التغـزل بصاحبتـه وعـدم التخلي عنها، على الرغم من جسامة الموقف وخطورته.

ويستخدم بشار صيغة "وعهد الله"، فيقول[25]:

وعهـدِ اللهِ والميثـــــا قِ بين الـــسِّترِ والمنْـــبرْ
وملهى بكَ أحيانـــــاً خـلافَ السّـــمُرِ المُقْـمِرْ
وإني كنتُ لا أنـــسى فقد أصبحتُ لا أذكُـــرْ
فهـــل يرجـعُ لي ذاكَ كمـــا كان فـلا أفْـتُرْ

إنّ استخدام عبارة: "وعهدِ الله" -كما أرى- ذات وقع نفسي، فالشاعر يتحدث عن حبيبتـه، وبينـهما عهود ومواثيق- أو هذه هي سُنة الهوى عند العرب على الأقل- ولذا، جاءت هذه اللفظة: "عهد" بإضافتـها إلى لفظ الجلالة؛ لتنبئ عن نفسية الشاعر التي تحاول أن تنفي الشكوك، وقد تحالفت معها كلمـات "الميثـاق والستر والمنبر"، ليضفي الشاعر جواً من القداسة والهيبة.

دلالة القَسَم بعَمْر في شعر بشار:

معنى "عمر" في اللغة:

جاء في المعجمات: العُمر: بالفتح وبالضم وبضمتين: الحياة، يُقال: قد طال عَمْرُه وعُمْرُه لغتان فصيحتـان، فإذا أقسموا، قالوا: لعَمُرك، فتحوا لا غير. ومعنى لعَمُر الله وعَمْرُ الله: أحلف ببقاءِ الله ودوامه، فـإذا قلـت: عَمْرَك الله، فكأنك قلت: بتعميرك الله، أي بإقرارك له بالبقاء[26]:

عَمْر مضافة إلى الضمير في شعر بشار:

استخدم بشار لفظة "عَمْر" مضافة إلى الضمير، كقوله[27]:

لعَمْري لقـد أجْدى عليَّ ابنُ بَرْمَكٍ وما كُلُّ من كان الغِنى عندهُ يُجـدي

وقال في شهوة النفس[28]:

لعَمْري لقد غالبتُ نفسي على الهوى لِتَسْلى فكانت شهوةُ النفسِ أغلبـا

ولا شك في أن مغالبة النفس شيء مهم وعظيم لدى الشاعر؛ لما فيها من المكابدة والمعاناة. وقد أسعفت الصيغة الصرفية: "غالب" على وزن فاعل- التي تدل على المشاركة- في إبراز هذه المعاناة الداخلية والصراع الذاتي.

ويرثي بشار ابنه محمداً، فيقول[29]:

لعَمْري لقد دافعتُ موتَ مُحَمَّدٍ لو أنّ المنايا ترعوي لطبيبِ

لقد جاء القسم، هنا، في موقف جليل، هو موقف الفقد والرثاء، رثاء الابن.

ويرثي الشاعر صديقاً له من الزنادقة قُتِل وصُلِب؛ فيقول[30]:

لعَمْري لئِنْ أصبحتَ فوقَ مُشَذَّب طويلٍ تُعفِّيكَ الرياحُ مَع القَطْرِ

لقد عِشْتَ مبسوطَ اليدين مُبَرِّزاً وعوفيتَ عند الموتِ منَ ضَغْطةِ القبرِ

والطريف أن الشاعر "يستعير، هنا، حالة هذا المصلوب، ليجعلها في صالحه، فهو قد أفلت من ضيق القبر وضغطته، وكأنما قد كان ذلك في صالح الميت"[31].

ويقول بشار[32]:

عَجْزٌ لعَمْري وليس ينفعُني فكُفَّ عنّي العتابَ يا عُمَرُ

واللافت للنظر أن بشاراً قد أكثر من حرف العين في البيت السابق، وربما يرجع ذلك إلى أن الشاعر قد ضاق ذرعاً بهذا المخاطب "عمر"، فظلت صورته تضغط على تفكيره - الشاعر- ومشاعره، ولذا كرّر حرف العين الذي هو جزءٌ من اسمه.

وقال الشاعر يهجو أبا هشام الباهلي[33]:

أيشْتُمُ عِرْضي الباهليُّ بعرضِهِ لعمرُكَ إنّي بعدها لَمُشَتَّمُ

ويبدو- من خلال النصوص السابقة- أن بشاراً يُقسم بعَمْر في قوله: "لعمري" أو "لعَمْرك" فيما يجلُّ من الأمور -شأنه شأن الشعراء الجاهليين، وهذا يفرض أو يستتبع جلال المُقَسم به[34].

ولعل القَسَم بعَمْر -في حال إضافتها إلى الضمير- أن يكون برب يملك الموت والحياة من أن يكون بالعُمر ... وبخاصةٍ أن "عَمْر" لم ترد في شعر بشار مضافةً إلى ضمير الغائب، وهذا يبعد أن تعني "عَمْر" العُمْر، وتدني "ربّاً"؛ فضمير الغائب قد يعود في العربية إلى الله ضمناً، كقولنا: نحمده ونشكره، فنفهم ضمناً أن الضمير يعود إلى الله، وكالأسماء: عبده وسعده، فكأن الشاعر يخشى من أن يلتبس ضمير الغائب، إذا قال: "لعَمْره" بين الغائب المعبود والغائب العابد[35].

عمر مضافة إلى اسم الجلالة:

ترد "عَمْر" مضافةً إلى اسم الجلالة، في شعر بشار، من ذلك قوله يخاطب الواشي في أثناء غزله بعبدة[36]:

بـــل أيُّها الواشي بهـــا عندَنا ... لازِلـــْـتَ لا تُعجِبُـــني فازْدَدِ

أنتَ لعَمْـــرُ اللهِ أوْجَدْتَهـــا ... عَلَيَّ حتى كـــدَّرتْ مَـــوْرِدي

وقد رُوي أن الرسول عليه السلام نهى عن قول الرجل في القسم: لعَمْرُ الله[37]، وسبب ذلك:"لأن المُـــراد بالعَمْر عمارة البدن بالحياة، فهو دون البقاء، وهذا لا يليق بالله جلَّ شأنه وتعالى علّواً كبيراً"[38].

فالعَمْر، في النص السابق، مأخوذ من قولهم: عمرْت البيت الحرام إذا زرتـــه، ومنـــه اشـــتقاق الاعتمـــار والعمرة... ويحتمل أن يكون عَمرك مأخوذاً من عمرت الديار من العِمارة، أي بعَمْرك المنازل المشرفة بذكـــر الله وعبادته[39].

ولذا، فلفظة "عَمْر" جاءت بمعنى "بيت"، فيكون القَسَم بعمر الله قَسماً ببيت الله[40].

عَمْر مضافة إلى اسم غير لفظ الجلالة في شعر بشار:

جاءت "عَمْر" في شعر بشار مسبوقةً باللام ومضافةً إلى اسم الأب: "لعَمْرُ أبيك..."، من ذلك قوله[41]:

لعَمْرُ أبيها ماجَزَتْنـــا بنائـــلٍ ... ومـــا كان منها بالوفاءِ وفـــــاءُ

وقال بشار يهجو أحد الأعراب، فيصوِّر حياته وما اعتراها من تحُّول عن البداوة إلى الحضارة[42]:

لعَمْرُ أبي لقد بُدِّلتَ عَيْشـــاً ... بِعَيشِكَ والأُمـــورُ إلى مَحـــــارِ

وقال يصف مغنية[43]:

لعَمْرُ أبي زوّارُها الصِّيدُ إنّهـــمُ ... لَفِي منظر منها وحُسْنِ سَمَـــــاعِ

وقال يهجو[44]:

فلا تلُمِ النَّهريَّ إنْ قَـــلَّ جريُـــهُ ... لعَمْرُ أبيكَ الوَالِقـــي لقـــــد جَهِدْ

ولا أظنُّ أن بشاراً يُقسم بعُمر الأب حقيقةً، وإنما كان يُقسم بـــربِّ الأب، وهـــذا مـــا ورد في الشـــعر الجاهلي[45].

صيغة "لا وأبيك" في شعر بشار:

وترد هذه الصيغة في شعر بشار، إذ يقول[46]:

فلا وأبيكَ ما في العَيْـــشِ خَـــيرٌ ... ولا الدنيـــا إذا ذهبَ الحيـــــاءُ

ويبدو لي أن هذا الضرب من القسم كان شائعاً في الجاهلية، والشاهد على ذلك أن الرسول عليه السلام نهى عنه، فقال: "لا تحلفوا بآبائكم"[47]، وهذا يدل على أن بشاراً كان يتمسَّك بالتقاليد الجاهلية في شعره وفكره، أحياناً.

المكان في القَسَم عند بشار:

يبرز المكان في القَسم عند بشار، ومن ذلك قوله[48]:

ورَبِّ مِنىً لقد كذبوا عليها ... كما كذَب الوُشاةُ على الغُرابِ

دَعْوا عَوَراً بمُقلتِهِ ويغدو ... صحيحَ المُقلتَيْن منَ المَعابِ

ولا شك في أن "مِنى" من الأماكن المقدسة التي لها وقع في ذاكرة المسلمين.

ويبدو أن جذور الصورة في البيت الثاني مستمدة من الموروث، ذلك أنه كان يقال: إن الغراب يبصر من تحت الأرض بقدر منقاره[49]:

ويُقسم بشار بمقام إبراهيم الخليل وبالحجر الأسود وبالبيت الحرام أنه يشتهي الموت قبل حبيبته، فيقول[50]:

ليت شعري تبكين إنْ مُتُّ من حُبِّـ ... ـكِ أو تضحكين يا خَشَّابَهْ

إنّني والمقَامِ والحجرِ الأسْـ ... ـوَدِ والبيتِ مشْرِفاً كالسَّحابَهْ

أشتهي أن أُدسَّ قبلكِ في القبْـ ... ـرِ لكَيْ تُصبحي بنا كالمُصَابَهْ

إن هذه الأيمان المغلظة بهذه الأماكن تدل دلالةً قويةً - ولو ظاهرياً- على قدسيتها في نفس الشاعر.

ويقسم بشار ببعض المواضع الحجازية المقدسة، حين يقول[51]:

حلفتُ بمَنْ حَجَّ المُلبُّونَ بيتَه ... وبالخَيْفِ والرَّامينَ للجَمَرَاتِ

لتقبيلُ خدَّيها ومصُّ لسانِها ... ألذُّ مِن الباكينَ في عرفاتِ

تتبدَّى في النص السابق بعض الطقوس والشعائر الدينية التي يمارسها المسلمون في موسم الحج، من مثل: التلبية ورجم إبليس والوقوف بجبل عرفة.

وواضح أن بشاراً يمزج -في النص السابق- بين ما هو مقدس وما هو مدنس، وكأنه يهزأ بما يقسم به.

وتبرز بعض مناسك الحج في قسم بشار، حين يقول[52]:

لا ومَنْ سبَّح الحجيجُ لهُ ما ... كان ظنّي اتِّقاءَ عَينِ الرَّقيبِ

غيرَ أنّ الإمامَ أمْسكني عَنْـ ... ـكِ فقُولي في ذَنْبهِ لا ذُنوبي

تتضافر المفردات داخل النسيج النصي لتشكيل عالم ديني، وذلك من خلال قول الشاعر: "سبّح الحجيج" و"الإمام" و "ذنوبه" التي تقترن بالخطايا في الغالب.

ويحلف بشار برب مكة، قائلاً[53]:

ولقد حلفتُ برب مكّـــــــ ـــــةَ والمُحَلَّـــــقةِ السَّـــــواجِدْ:
ما نـــــالَ فضـــلَ بني المُهَـــ ـــــلَّبِ منذُ كانوا جودُ جـــــائدْ

والشاعر إنما يحلف، في الحقيقة، بالكعبة المشرفة والطائفين بها بأن مجد آل المهلب لم يفُزْ بمثله أحد.

ومن الجدير ذكره أن الكعبة المشرفة لها مكانة في نفوس العرب منذ القديم، فقد كـــانت "أهـــم البيـــوت المقدسة عند غالبية العرب الجاهليين، فقد أجمعوا على تعظيمها والحج إليها... ولعل السبب في ذلك يعـــود إلى أنهم عدوها بيت الله الذي يقر معظمهم بوجوده..."[54].

ويحلف بشار يميناً عند المقام، إذ يقول[55]:

إنّي حلفتُ يميناً غيرَ كاذبـــــــةٍ عندَ المَقامِ ولـــم أُقربْ لـــــه فَنَدا
لو خُيِّر القلبُ مَنْ يمشي على قَدَمٍ لاختار سُعدى و لم يَعْدِلْ بها أحَـــدَا

ونستشفُّ من السياق أن للمقام مكانةً عظيمةً في نفس الشاعر، ذلك أنه يحلف "يميناً غير كاذبة"، فالصفـة: "غير كاذبة" تؤكد لنا حرصه على أن تكون يمينه صادقةً؛ لأنه يقف عند أماكن مقدسة.

ويحلف بشار يميناً في المسجد، حين يقول[56]:

إنّـــي حلفـــتُ ألـــيّةً صدقتْ بفنَاء بـــيت الواحـــــد الصَّمَـــدِ
لتَرَكْتني صَـــبّـــاً بحُبِّكُـــــم وقَتلْتني ظُلْماً بِـــــــــلا قَـــــوَدِ

فالشاعر يحلف يميناً في المسجد، بأن حبيبته قد قتلته ظلماً وتركته يعاني الحب والهجر.

وعلى الرغم من أن اليمين في المسجد تدُّل على الصدق والالتزام، فإننا لا نستطيع أن نطمئن إلى أيمان بشـلر، إذ إن فيها خداعاً وغشاً.

الفعل "أقسم" في شعر بشار:

ورد هذا الفعل "أقسم" ومشتقاته في شعر بشار، من ذلك قوله يخاطب صاحبته "عبدة"[57]:

يا عَبْدَ أقسمُ بالذي أنـــــا عبدُهُ ولهُ المَقامُ وما حَـــوَتْ عرفـــــاتُ
لا أصطفي أبداً سِـــواكِ خليلـــةً فثقي بذلكَ والكِـــــرامُ ثِقـــــاتُ

يُركزِّ بشار، في النص، على إبراز فكرة العبودية والطاعة لله سبحانه وتعالى، نفهم هذا من خـــلال ربطـــه القسم بهذه الأماكن الدينية المقدسة التي لها مكانة في نفوس المسلمين، فيزورونها امتثالاً لأوامره سبحانه، وتعبيراً عن خضوعهم وطاعتهم له.

ويصف بشار تغريره ببنتٍ صغيرةٍ لا خبرة لها، فيقول[58]:

أُقســـمُ باللهِ ما نجوتَ بهـــــــا اذهبْ فأنتَ المُســـــوَّرُ الظَّفِـــرُ

يُسند الشاعر القَسَم إلى صاحبته، ويذكر المُقسَم به (الله)، ويترل نفسه منزلة المخاطب.

ويسند بشار القسم إلى عينه، حين يقول[59]:

كأنما أقسمتْ عيني تُسالِمُـــهُ حتى ترى أحـــورَ العينينِ في الجَادِي

والشاعر، في الحقيقة، هو الذي يُقسم لا عينه، ولكنه اختار هذا الجزء من نفسه على سبيل المجاز المرســـل، وربما نسب القسم إلى عينه، انطلاقاً من إحساسه بالشعور بالنقص والتعويض نتيجة فقدانه بصره.

ويستخدم بشار "أقسم" دون ذكر المُقسَم به، كقوله[60]:

فأُقسِمُ إن كان الهوى غيرَ بالـــغٍ بي القَتْلَ مِن سُعدى لقد جاوز القَتْلا

ومن ذلك قوله أيضاً[61]:

وقـــوْمٍ زَعمـــــوا أنّـــي مِـــن الشَّـــــكِّ تخلَّيْـــتُ

فأقســـــــمتُ لَهُـــمْ ألاّ ولكـــــــنّي تجـــــافيْـــتُ

الفعل: "آليت":

جاء في اللغة: آليتُ: أقسمتُ. والألية: اليمين[62]:

وقد ورد هذا الفعل: "آليت" ومشتقاته في شعر بشار، ومن ذلك قوله في الغزل[63]:

ربَّ أغنَ مُطَّوقـــــاً ذهبـــــاً صِفْرُ الحشـــــا بيضٌ ترائبـــهُ

آلـــيتُ لا أسْـــلَى مودَّتَـــهُ لـــو ما تَسلَّى الماءَ شاربُـــــهُ

يرسم الشاعر صورةً جسديةً مثاليةً لصاحبته، في البيت الأول، ثم يأتي بالفعل: "آليتُ"؛ ليدلّل على تمسّكه بها، وحرصه عليها.

وقال يهجو أحدهم[64]:

آلـــيتُ أرضـــى بالذي سُمْتَني أو يبعثَ الموتـــى لنـــــا باعِثُ

فالشاعر يحلف لا يرضى بالذي جشّمه إياه، أو يبعث الله مَن في القبور، وهذا قول فيه تشدُّد وصرامة.

وقال يتغزل[65]:

وقد نهـــاني الإمـــامُ وانصرفتْ نفسي لـــهُ والإمـــــامُ يُرتقَبُ

آلـــيتُ يأبى الصِّبـــا وأتْبَعَـــهُ هيهـــات بيني وبينَـــهُ نَجَـــبَ

ومن الواضح أن الشاعر يستخدم "آليت" في موقفٍ مرعبٍ، هو موقف الخليفة الذي نهاه عن الغزل، ممـــا دفع الشاعر لأن يقسم بأنه أصبح بينه وبين الهوى وادٍ بعيد.

وقال أيضاً[66]:

فآليتُ: لا آلو الخليفةَ طاعةً ولا أبتغي إذْناً على ذاتِ أوْشَاحِ

والموقف، هنا، موقف تسيطر عليه الرهبة والفزع، ذلك أن الشاعر يعترف بأنه لا يستطيع أن يعصي الخليفة، فصدَّر البيت بهذا القسم.

وقال في محمد بن أبي العباس السفاح[67]:

فآلى على الهجرِ الرُقادُ و لَمْ تَزَلْ نجيّاً لضيفَانِ الهمومِ مُسهَّدا

يُكسب الشاعرُ الرُقاد صفات الإنسان وأفعاله من خلال الاستعارة التجسيمية، فصار الرُقاد هو الذي يُقسم على هجر الشاعر، ليبقى -الشاعر- يناجي همومه، وهذا، ولا ريب، موقف مهم بالنسبة للشاعر.

ويربط بشار هذا القسم بالجارية، حين يقول[68]:

وتألّتْ ما أتتْ لي مُسْخِطاً كذبتْ والمُنْزِلِ القَطْرِ جَدا

ينسب بشار القسم إلى الجارية، ويبدو أن الموقف مهم عنده أيضاً، نستخلص هذا، من خلال الرد الذي جاء مُشبَعاً بالتوكيد "القسم: -في العجز- بأنها كانت كاذبة.

وقال في امرأة استدرجته إلى مترلها وسخرت منه[69]:

عليَّ آليّةٌ وعليَّ نذْرٌ أمسُّك طائعاً إلاّ بعودِ

استخدم الشاعر، هنا، الاسم: "أليّة"، وقدّم الخبر "عليَّ"، للأهمية.

وإذا تأملنا البيت السابق؛ فإننا نلحظ أن التشديد يغلب على كلماته وبخاصةٍ تشديد ضمير المتكلم؛ ليبين الشاعر الضغط النفسي الذي يرين عليه، وقد ربط هذا القسم بالنذر؛ لما يحملان من معنى القداسة.

ويبدو لي أن هذا النوع من القسم "آليت" يأتي في معرض القسم الحازم والإصرار، فمعناه: أقسم أن أنأى بنفسي إلا أن أفعل كذا، فهو قسم فيه نوع من حصر الأمر في شيءٍ ما.

قَعيدك:

جاء في اللغة: القَعيد: الحافظ. وقَعِيدكَ الله: نشدتُكَ الله. وقعيدك الله: سألته أن يكون حافظك[70].

وقد تبدّت هذه الصيغة في شعر بشار، كقوله[71]:

ألا أيُّها العَادي ولم أقض نَسْخَتي يُعاتبُني في الجود غيرَ مُصيبِ

قَعِيدكَ أن تَنْهى امرأً عن طِباعِهِ يجودُ ويغدو ناصباً بعتيبِ

يناشد الشاعر من يلومه في الجود ويتوسَّل إليه أن يكفَّ عما هو فيه من طباعه السيئة.

وقال في الغزل[72]:

قَعيدك أُخرى لا تبيعُ مودّتـــي بوُدٍّ ولا تخشى إذا ما تولّـــتِ

فبيني كما بانَ الشبابُ إذا مَضى وكان يـــدٌ مِنهُ عليَّ فولّـــتِ

فهو يدعو تلك المرأة أن تهجر وتبين كما بان شبابه بعد دنوٍّ واتّصال.

وقال يمدح سفيح بن عمرو أحد بني تغلب وكان أميراً قائداً[73]:

قَعِيدكَ أن يَنسى امرؤٌ أنت همُّـــه تلالا عليهِ الَهمُّ لا يَبرحُ الخَلْـــدا

ويبدو أن صيغة "قَعِيدكَ" تأتي بمعنى: أقسمتُ أن أبقى قعيدك حتى يُستجاب لي كذا، أو أقسمتُ أن أرابط بنفسي قاعداً، حتى يُستجاب لي، فكأنها تأتي في سياق الاستجارة، كما تدل على الحضِّ والإغراء.

وهي من التعبيرات المسكوكة، بمعنى أنها من المسموع الذي لا ينسج مثله.

صيغ عامية: "بحياتي" و "بعيشك":

وردت هذه الأساليب من القَسَم في شعر بشار، من ذلك قوله يتغزل بعبدة[74]:

بحياتي مُـــنّي عليَّ بنـــــوم أو عدِيني... رضـــيتُ بالموْعـــودِ

وقال يتغزل بعبدة أيضاً[75]:

إنّي وعَيْـــشِكِ يا عبَّادَ فاستَمِعـــي لو أبتغي فوق هـــذا الحُـــبِّ لم أزِدِ

فقوله: "بحياتي" و "بعيشك" يشيع في الحياة اليومية العامية، ولا غرو في هذا؛ فقد تداول الشعراءُ العباسيون في مجال الغزل عبارات جديدة تعكس رقة مشاعرهم وتهذيبهم الوجداني... وهي إن دلّت على شيء، فإنمـــا تدل على أن نزعةً واضحةً إلى جعل الشعر قريباً جداً من لغة الناس اليومية قد أخذت تتأكد في العصر العباسي جيلاً بعد جيل..."[76].

وخلاصة القول أن بشاراً قد أكثر من القَسَم في شعره، ولعل هذه الظاهرة كانت شائعةً في الشعر العـــربي في جميع عصوره، بل إن "الإكثار من القَسَم هو من صفات العامة... فالقسم في لغة العوام نوع من الاستعمال اللغوي يجريه العامي بفطرته التقليدية... والقسم من خصائص الشعوب السامية وألفاظه مختلفة بحسب الزمـــان والمكان وبحسب اختلاف الأديان وبحسب اختلاف الطبقات. فهو موجود في الجاهلية كما هـــو موجـــود في الإسلام وهو مألوف عند المسيحيين كما هو معروف عند المسلمين[77]".

ويستوقفنا في كلام السامرائي ربطه القسم بالعوام، وهذا ما نلحظه عند بشار، إذ إن الطبقة الـــتي كـــان يتعامل معها هي طبقة الجواري والقيان وبنات الهوى -في الغالب- ومن هنا، ربما نفسر العلاقة بين المُقسم بـــه والمُقسم عليه -في شعره- أو بعبارة أخرى علاقة القسم بالموضوع، إذ نجد أن بشاراً كان يقســـم في مواطـــن الغزل -في الغالب- ولعل ذلك يعود إلى أن بشاراً كان معروفاً بتقلّبه - مثلما كانت الطبقة التي يتعامل معـــها متقلبة أيضاً- فحاول أن يؤكد كلامه، ليحمل الآخرين على تصديقه.

الهوامش

1- الحوفي، أحمد محمد، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، القاهرة، 1972، ص 410-411.

2- أبو سويلم، أنـــور، الإبل في الشعر الجاهلي، دار العلوم للطباعة والنشر، الريـــاض، ط1، 1983، ج1، ص 265.

3- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب المحيط، إعداد يوسف خياط ونـــــديم مرعشـــلي، بيروت، 1970، غمس.

4- أبو سويلم، أنور، النار في الشعر الجاهلي، ضمن كتابه: "مظاهر من الحضارة والمعتقد في الشعر الجاهلي"، دار عمار، عمان، 1991، ص 134.

5- المرجع نفسه، ص 135.

6- انظر البحيري، أسامة، تحولات البنية في البلاغة العربية، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيـــع، مصـــر، ط1، 2000، ص 394.

7- ناصف، مصطفى، قراءة ثانية لشعرنا القديم، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، ص 87، وانظر أبـــو سويلم، أنور، الإبل في الشعر الجاهلي، ص 265.

8- عبد الرحمن، نصرت، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، مكتبة الأقصى- عمان، 1976، ص 106.

9- انظر الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، تحقيق سمير جابر، دار الكتب العلميـــة، بـــيروت، ط2، 1992، ج3، ص 133، ص 204.

10- ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعـــــارف، القـــاهرة، ط5، 1965، ص 151، وانظر نافع، عبد الفتاح، الصورة في شعر بشار، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1983، ص 19.

11- الأصفهاني، الأغاني، ج3، ص 131.

12- ابن برد، بشار، الديوان، قدّم له وشرحه صلاح الدين الهواري، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1998، ج1، ص 81، واللهِ أنساكِ: أي واللهِ لا أنساكِ.

13- المصدر نفسه، ج1، ص 151.

14- المصدر نفسه، ج1، ص 290.

15- المصدر نفسه، ج2، ص 67، أفلح: أفوز، أظفر.

16- انظر الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضـــل إبراهيـــم، دار المعارف، القاهرة، ج8، ص 89.

17- الديوان، ج4، ص 31. ومناسبة النص أن بشاراً حاول الإساءة إلى إحدى الجواري في منزل أحدهم، فاكتشف أمره، فاعتذر بهذه الأبيات.

18- عياد، شكري، مدخل إلى علم الأسلوب، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط1، 1982، ص 47.

19- الديوان، ج4، ص 188.

20- المصدر نفسه، ج4، ص 131.

21- انظر عبد الفتاح، بلال كمال، ما شذ عن اللزوميات: المعري راثياً، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المجلد 3، العدد 5، 2001، ص 496.

22- الديوان، ج1، ص 197. تلهب: تتحرّق غضباً.

23- انظر خليف، يوسف، تاريخ الشعر في العصر العباسي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1980، ص 41. فقد ذكر أن بشاراً كان يجاهر بزندقته.

24- الديوان، ج2، ص 23.

25- المصدر نفسه، ج3، ص 192. المراد بالستر والمنبر: ستر الكعبة ومنبر البيت الحرام. خلاف: خلف. السمر: ضرب من شجر البادية، وصفه بالمقمر؛ لأنه مجلل بنور القمر.

26- ابن منظور، لسان العرب المحيط، عمر، وانظر الزبيدي، محب الدين الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1994، عمر.

27- الديوان، ج3، ص 113، أجدى علي: أعطاني. ابن برمك: هو خالد بن برمك بن جاماس، أبو البرامكة، وأول من تمكن منهم في دولة بني العباس، كان أبوه "برمك" من مجوس بلخ. لما بويع السفاح ودخل خالد لمبايعته، توهمه من العرب؛ لفصاحته، وأقره على الغنائم وجعل إليه ديوان الخراج وديوان الجند بعد ذلك. كان سخياً سرياً، وقد مات حوالى سنة 163هـ.

28- المصدر نفسه، ج4، ص 12.

29- المصدر نفسه، ج1، ص 240.

30- المصدر نفسه، ج4، ص 77. المشذب: العود الذي صلب عليه. مبسوط اليدين: كناية عن السخاء والكرم. عوفيت من ضغطة القبر: لم تدفن فتعاني من ضغطة القبر "الألواح والتراب والظلمة".

31- عبيد، أحمد محمد، المصلوب في الشعر العربي، ضمن كتابه "دراسات في الشعر العربي القديم"، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2001، ص 148-149.

32- الديوان، ج4، ص 75.

33- المصدر نفسه، ج4، ص 166.

34- عبد الرحمن، نصرت، حول دلالة "عمر" في القسم والدعاء في الشعر الجاهلي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد المزدوج 19-20، السنة 6، 1983، ص 17.

35- انظر المرجع نفسه، ص 18-19. ود. نصرت يعني الشعر الجاهلي، ولكنني لاحظت أن هذه الظاهرة تنسحب على شعر بشار أيضاً.

36- الديوان، ج2، ص 249. أوجدتها: أي جعلتها ذات موجدة، والموجدة: العداوة.

37- البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج4، ص 221.

38- الزبيدي، تاج العروس، عمر، وانظر ابن منظور، لسان العرب المحيط، عمر.

39- الزبيدي، تاج العروس، عمر، وانظر ابن منظور، لسان العرب المحيط، عمر.

40- انظر عبد الرحمن، نصرت، حول دلالة عمر، ص 23.

41- الديوان، ج1، ص 24.

42- المصدر نفسه، ج3، ص 312.

43- المصدر نفسه، ج4، ص 109. الصيد: جمع الأصيد، الرجل الشريف الذي لا يلتفت تكبراً وزهواً.

44- المصدر نفسه، ج3، ص 150. النهري: الفرس. الوالقي: فرس لخزاعة مشهور. جهد: أتعب. المعنى: لا تلمني إن لم أطل في هجوك؛ لأن الفرس الكريم يأنف أن ينافس فرساً ضعيفاً.

45- انظر عبد الرحمن، نصرت، حول دلالة عمر، ص 25.

46- الديوان، ج4، ص 8.

47- صحيح البخاري، ج4، ص 218.

48- الديوان، ج1، ص 259.

49- انظر الدميري، كمال الدين محمد بن موسى، حياة الحيوان الكبرى، تحقيق عبد اللطيف سامر بيتية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1995، ج2، ص 9.

50- الديوان، ج1، 116. الخشابة: التي تختلط أحوالها، فربما أحبت وربما كرهت.

51- المصدر نفسه، ج2، ص 46. الملبون: القائلون: لبيك اللهم لبيك في الحج. الخيف: ناحية من منى يقصدها الحجاج. رمي الجمرات: رجم الشيطان، من مناسك الحج.

52- المصدر نفسه، ج1، ص 334.

53- المصدر نفسه، ج2، ص 132. المحلقة السواجد: أراد الحجيج الطائفين المحلقين رؤوسهم. الجائد: الذي يعطي ويجود.

54- زيتوني، عبد الغني، الوثنية في الأدب الجاهلي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1987، ص 75.

55- الديوان، ج2، ص 135. الفند: الكذب.

56- المصدر نفسه، ج3، ص 151.

57- المصدر نفسه، ج2، ص 21.

58- المصدر نفسه، ج3، ص 270. المسوّر من الملوك: المسود المملك. الظفر: الكثير الظفر.

59- المصدر نفسه، ج2، ص 222. تسالمه: أي لا تسالمه. الجادي: الزعفران تصبغ به ثياب النساء.

60- المصدر نفسه، ج4، ص 136.

61- المصدر نفسه، ج2، ص 33-34. تجافيت: تباعدت.

62- ابن منظور، لسان العرب المحيط، ألا.

63- الديوان، ج1، ص 209. صفر الحشا: خالي البطن من السمن، وهو مما يستحسن في النساء. الترائب: موضع القلادة من الصدر.

64- المصدر نفسه، ج2، ص 62.

65- المصدر نفسه، ج1، ص 213. الإمام: الخليفة المهدي. يرتقب: يحذر. يأبى الصبا: أي الإمام. نجب: واد عظيم في ديار محارب.

66- المصدر نفسه، ج2، ص 110. لا آلو الخليفة طاعةً: لا أقصر في طاعته. ولا أبتغي إذناً: لا أطلب الدخول على امرأة. الأوشاح: جمع وشاح على غير قياس.

67- المصدر نفسه، ج3، ص 21. النجي: المناجي السر.

68- الديوان، ج3، ص 50.

69- المصدر نفسه، ج3، ص 147.

70- ابن منظور، لسان العرب المحيط، قعد

71- الديوان، ج1، ص 238.

72- المصدر نفسه، ج2، ص 38.

73- المصدر نفسه، ج3، ص 37. تلالا عليه الهم: أصله تلألأ بهمزتين، فخفف للضرورة، وهو بمعنى تلألأ البرق: لمع، جعل الهم كالبرق في سرعة اتصاله به. الخلد: البال، وقد سكّن للضرورة.

74- المصدر نفسه، ج2، ص 246.

75- المصدر نفسه، ج2، ص 225.

76- إسماعيل، عز الدين، في الشعر العباسي "الرؤية والفن"، المكتبة الأكاديمية، القـــاهرة، ط1، 1994، ص 413-414.

77- انظر السامرائي، إبراهيم، التطور اللغوي التاريخي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيـــع، بـــيروت، ط3، 1983، ص 162-163.